بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة قّ

سورة مكية، كان رسول الله يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة، وفي الجماعات وهي تبدأ بقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾

﴿قٓ ۚ﴾ حرف من حروف العربية، جيء به للفت أنظارهم، وجذب اهتمامهم ليسمعوا القرآن، فتلزمهم الحجة، وهو قسم أقسم الله تعالىٰ به، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ قسم آخر.

وجواب القسم: إنه لحق، ومحمد صادق، والبعث حق.

وكان عليهم أن يؤمنوا ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ واستغربوا ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ لهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ يخوِّفهم من عذاب الله إذا لم يؤمنوا، ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لمَّا سمعوه ﴿هَٰذَا﴾ الذي تقول ﴿شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ ما سمعنا به في آبائنا الأولين.

﴿أَ﴾ تقول ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ﴾ نبعث، ونحاسب؟!! ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ كلام مستبعد لا يصدِّقه عقل، ويرد الله عز وجل عليهم قائلًا:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

أي: إن البعث حق، وسنعيد أجزاءهم بعد تفرقها في التراب، أو غيره؛ حيث ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أين صارت أجزاؤهم؟ وأين تفرقت أبدانهم؟ إنه لا يغيب عنا منها شيء، ولا يعجزنا عن جمعها شيء، ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ محفوظ فيه كل صغيرة، وكبيرة.

وهم لم يُعْمِلوا عقولهم، ولم يتريثوا في تفكيرهم، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ سراعًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فورًا ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ به محمد ﷺ وأخبرهم به، لذلك: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مضطرب؛ حيث خرجوا عن الحق، وبعدوا عنه.

ثم يقدم ربنا تبارك وتعالىٰ مجموعة من الأدلة التي توضح قدرته عز وجل علىٰ البعث، وتبطل قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

حيث يقول المولىٰ سبحانه:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

يعني: ﴿أ﴾ غفلوا، وعموا ﴿فَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ هذه الدلائل التي تثبت لهم قدرة الله عز وجل علىٰ البعث الذي ينكرونه!

وتقدم الآية الكريمة، ثلاثة أدلة، كل دليل منها مجموعة أدلة في ذاته:

الدليل الأول: السماء فوقهم، يقول المولىٰ: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ ورفعناها بغير عمد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب والنجوم النيرات ﴿وَمَا لَهَا﴾ وهي علىٰ هذا النحو البديع ﴿مِن فُرُوجٍ﴾ أي: عيوب؟

الدليل الثاني: الأرض، كيف ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ وسَّعناها، وفرشناها، وكوَّرناها ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾

فيها بقدرتنا، الجبال ﴿رَوَاسِيَ﴾ لئلا تميد وتضطرب؟ ﴿و﴾ كذلك ﴿أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ للخلائق ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ للنفس والعين، والأكل.

كل ذلك: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ من الله عز وجل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ متفكِّر في صنع الله ومخلوقاته، يتوصل بذلك إلىٰ الخشوع لعظمة الله وقدرته.

الدليل الثالث: الماء، يقول تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي السحاب، وهو ما بين السماء والأرض، ﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ نافعًا، لماذا؟ ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ حدائق وبساتين، ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ وهو ما يحصده الناس ويدَّخرونه لقوتهم. ﴿و﴾ أنبتنا به أيضًا ﴿ٱلنَّخْلَ﴾ فتصير ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ طوالًا ﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾ ثَمَّ ﴿نَّضِيدٌ﴾ منضود، متراكم بعضه فوق بعض لكثرته.

كل ذلك ﴿رِّزْقًا﴾ من عندنا ﴿لِّلْعِبَادِ﴾، ﴿و﴾ أيضًا ﴿أَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ أي: بهذا الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بعد أن كانت لا نبات فيها ولا حياة، هل فهمتم هذه الأدلة؟ إذا كنتم فهمتموها، فأعلموا أنه ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ للناس من القبور، يوم البعث الذي تنكرونه. فهل آمنوا؟ إن كذبوا فلا غرابة، فقد:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

نعم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ بالبعث ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبُ﴾ بلدة ﴿ٱلرَّسِّ﴾ بنبيهم، ﴿وَثَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام.

﴿وَعَادٌ﴾ قوم هودٍ عليه السلام.

﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسىٰ عليه السلام.

﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ قوم لوط عليه السلام.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ قوم شعيب عليه السلام.

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الذي أسلم باليمن، ودعا قومه إلىٰ الإسلام فكذبوه، ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ فيما جاؤوا به، وأخبروا عنه ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ لهم بالعذاب؛ لتكذيبهم، وأنتم كذلك إذا بقيتم علىٰ هذا الكفر والتكذيب.

يا أيها الذين كفروا ما لكم تنكرون البعث؟

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿أَفَعَيِينَا﴾ أفعجزنا ﴿بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ﴾ فلم نقدر عليه؟ إنكم لا تنكرون خلقنا لكل ما تـــرون، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩] إنهم لا ينكرون الأول، ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ خلط وشك ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يكون، وهو البعث.

نعم، نحن لم نعجز عن الخلق الأول، ولن نعجز عن الخلق الثاني وهو البعث، فقدرتنا شاملة، وعلمنا محيط:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بقدرتنا ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾ له من الخير أو الشر، ﴿وَنَحْنُ﴾ بكمال علمنا وشمول قدرتنا ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ فكيف لا نقدر علىٰ بعثه بعد موته؟

ثم يبيِّن المولىٰ ـ أيضًا ـ كمال علمه وقدرته بقوله سبحانه:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

اذكر أيها الإنسان ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ ويثبت الملكان ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ منك، وعنك، كل ما تفعل، أحدهما ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قعيد، مترصِّد لك لا يفارقك، ﴿و﴾ الآخر ﴿عَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أيضًا.

وهكذا ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ الإنسان ﴿مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ﴾ هذين الملكين، كل واحد منهما

﴿رَقِيبٌ﴾ حافظ لما يصدر منك ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر لا يغيب عنك، يكتبان كل شيء، حتىٰ أنين الإنسان في مرضه، ولا يفارقانه إلَّا عند الجماع والغائط.

وبعد أن بيَّن الله استبعادهم البعث !!

وبيّن أن جميع أعمالهم وأقوالهم محفوظة، أتبع ذلك بذكر بعض أحوالهم التي تكون في البعث الذي له ينكرون، فقال الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَجَآءَتْ﴾ ونزلت بالمرء ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ شدته ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يعرفونه، وهو حتمية الموت، ويقال له: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموت هو ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تهرب، ولا تحاول تذكره، ولا الاستعداد لما بعده.

﴿و﴾ بعد ذلك: ﴿نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ويكون الموقف الرهيب العصيب، **ويقال للجميع**: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ الذي حذَّر الله خلقه من غضبه عليهم فيه، ﴿و﴾ في هذا الجو المشحون ﴿جَآءَتْ﴾ إلىٰ الموقف ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ صاغرة تنتظر ما ينتهي إليه حالها، ويكون ﴿مَّعَهَا﴾ أي: مع كل نفس ﴿سَآئِقٌ﴾ ملَك يسوقها إلىٰ المحشر، ﴿وَشَهِيدٌ﴾ ملَك يشهد عليها بأعمالها.

ويقال لكل إنسان في هذه اللحظة:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

أي: ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ وأنت في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ النازل بك، فلم تحسن الاستعداد له، أما اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي كان يلهيك عن التفكُّر فيما بعد الموت، وحسن العمل لهذا اليوم، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ قوي يرىٰ المصير، ولكن لا يستطيع أن يفعل شيئًا لتغييره، ولا لتحسينه.

ويتقدَّم الملَك الموكَّل به، ويقدِّم الوثائق الدامغة، التي سجلت عليه، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الملك المقترن به، الموكل بكتابة كل شيء عليه، فيقول ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ﴾ ما عندي مكتوب بالنسبة له مما قد عمله وصدر عنه ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر جاهز للنشر والقراءة.

فيقول الجبَّار على الكفار، للملائكة الأخيار السائق والشهيد:

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾

أي: ألقيا في جهنم على وجوهم ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بالنعم والمنعم؛ لأنه وُصِف بهذه الصفات:

أولًا: ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، وأهله.

ثانيًا: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ من الحقوق، والصدقات، وصلة الأرحام.

ثالثًا: ﴿مُّعْتَدٍ﴾ ظالم، متعد على حقوق الله، وحقوق العباد.

رابعًا: ﴿مُّرِيبٍ﴾ متشكِّك في دين الله وشرعه.

خامسًا: مشرك هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ عز وجل ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ شريكًا له، ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ إذًا ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ الذي في جهنم، وبئس المصير له.

ويُلقى الكافر العنيد في العذاب الشديد.

وتكون الخصومة بين هذا الإنسان الكافر وقرينه الشيطان، فيقول الإنسان: يا رب هذا ﴿أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٩]، يا رب هذا أوقعني في الكفر والطغيان.

ويرد عليه الشيطان، كما في قوله تعالى:

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾

ينفي الشيطان دعوى الإنس، ويتبرأ منها، ثم يقول ﴿وَلَٰكِن﴾ هذا الإنسان ﴿كَانَ﴾ باختياره ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، واتباعه.

وهنا يتدخل ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ عندي، حيث لا ينفع الخصام، خاصة ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ في كتبي، وعلىٰ ألسنة رسلي ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾ الذي يخوِّفكم العذاب علىٰ هذا الكفر والطغيان، ولكنكم، لم تستجيبوا له، ولم تنتفعوا به.

علىٰ كل حال: ﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ ويغير ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ بالخذلان والعذاب لأي كافر ﴿لَدَىَّ﴾ أبدًا ﴿و﴾ في الوقت ذاته ﴿مَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ في هذا اليوم، ولا في أي يوم.

ثم يحدثنا ربنا عن نهاية الكافرين، ووضعهم، حيث يقول عز وجل:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

نعم، يحشر الكافرون حشرًا في جهنم، التي يخاطبها رب العزة قائلًا لها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ حسب وعيدي السابق:

﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]؟

﴿و﴾ تجيب ربها، حيث ﴿تَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ يا رب علىٰ ما يملأ جوفي بمن ضقت بهم ذرعًا؟

وأما المؤمنون الصالحون، جعلنا الله منهم، وحشرنا معهم، فيقول رب العزة عنهم، مبشرًا لهم:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ وقربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وصارت منهم ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ، ثم يقال لهم ﴿هَٰذَا﴾ الذي ترون من النعيم هو ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ وما ينتظركم عند ربكم حسب وعده السابق لكم بالنعيم، وهو ﴿لِكُلِّ﴾ مَن اتصف بهذه الصفات:

أولًا: ﴿أَوَّابٍ﴾ تواب إلىٰ الله، رجّاع إلىٰ الحق.

ثانيًا: ﴿حَفِيظٍ﴾ لحدود الله وشرعه، ملتزم بالعمل به.

ثالثًا: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ من خاف الله في سره وخلوته.

رابعًا: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ وظل علىٰ ذلك حياته، حتىٰ لقي الله تعالىٰ يوم القيامة، بقلب سليم من أمراض القلوب.

هؤلاء يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ وأقيموا فيها بأمان ولا تخافوا الموت أو الخروج ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: يوم الخلود الأبدي.

﴿لَهُم﴾ بعد هذا الدخول، وفي هذه الإقامة ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ من كل شيء ﴿فِيهَا﴾ ﴿و﴾ ليس هذا فقط، بل ﴿لَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ علىٰ ما يرجون، ويشتهون.

وبعد هذا التخويف الشديد لكفار هذه الأمة، وجميع الكفار بما يكون من العذاب يوم القيامة.

وكذلك بعد هذا التشويق بما يكون للمؤمنين فيها، وهو في الوقت ذاته حسرة علىٰ الكافرين، بعد كل هذا: يهدد ربنا بمثل عقابه الدنيوي، الذي نزل بمن كان قبلهم، فيقول الحق جل وعلا:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

ألا فليرتدع الكفار، وليؤمنوا حتىٰ لا نهلكهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ من القرون التي كذبت الرسل كما يكذبون، هذه القرون كانوا ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ وقوة وجبروتًا وتقدمًا ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ تقلّبوا فيها، وغلبوا علىٰ أهلها، فماذا صار حالهم؟ أهلكناهم، ﴿هَلْ﴾ وجدوا ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ مهرب لهم؟ أبدًا.

وكذلك أنتم أيها الكفار لا محيص لكم من عذاب الله إن غضب عليكم:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ البيان ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ وعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ حي يعي، ويفهم ويستجيب، ﴿أَوْ﴾ لمن ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: سمع الوحي باهتمام ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر الذهن، صافي القلب، غير جاحد، ولا معاند.

ثم يبيِّن ربنا عز وجل قدرته علىٰ البعث الذي ينكرون، بدلالة ما يعرفون ويشاهدون، فقال تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

أي: من قدر علىٰ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مراحل وأطوار، ولم يصبه تعب ولا نصب، أيعجز عن إعادة الأجساد التي خلقها أولًا؟

كلا، وألف كلا، بل إنه عز وجل قادر، وسيعيدها، وسيحاسبها علىٰ الخير خيرًا، وعلىٰ الشر بمثله. **لذلك:**

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾

أي: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لك ويسخرون به منك، ولا تجزع، ولا تحزن، هذا **أولًا** .

ثانيًا : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في كل وقت ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ✻ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ كذلك ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ عقب الصلوات أيضًا.

ثالثًا: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ لما نوحيه إليك بخصوص يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ **وهو** إسرافيل ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

وذلك: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾

نعم، ﴿يَوْمَ﴾ ينادى المنادي ﴿يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ وهي النفخة الثانية ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي كانوا ينكرون، وهو البعث، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور إلىٰ الحساب، ومنه إلىٰ الجنة أو النار.

حقًّا: ما يقول رب العزة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾.

متىٰ يكون هذا المصير؟

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

يوم يخرجون من قبورهم مسرعين إلىٰ موقف الحساب، ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هيِّن.

يا محمد !!

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في حقك، وحق دعوتك، وسنحاسبهم نحن لا أنت ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ﴾ أي: بمجبرهم علىٰ الإيمان، وإدخالهم فيه كراهية، ﴿فَذَكِّرْ﴾ فقط ﴿بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: فذكِّر بالقرآن مَن تشعر بأنه يَخافُ وعيدَ الله المعجَّل والمؤجَّل أَقلَّ خوف.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الذاريات

سورة مكية، وهي تبدأ بقوله عز وجل:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾

يقسم الله عز وجل في هذه الآيات بشيء من مخلوقاته، ولله أن يقسم بما شاء.

والمعنى: ﴿وَ﴾ الرياح ﴿الذَّارِيَاتِ﴾ المثيرة للتراب وغيره ﴿ذَرْوًا﴾ بقدرة الله سبحانه وتعالى، ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ للسحب في الفضاء ﴿وِقْرًا﴾ ثقيلة بما تحمل من ماء.

﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ في الفضاء الرهيب ﴿يُسْرًا﴾، ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ﴾ لما تحمل من مطر فتسقطه على هذا المكان دون هذا المكان ﴿أَمْرًا﴾ من الله لها بذلك.

كل هذا قسم، وهو قسم عظيم، ولكن ما جواب القسم؟ وأين هو؟

يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾

هذا هو جواب القسم، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ به، وهو البعث ﴿لَصَادِقٌ﴾، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ أي: الجزاء بعد الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لا محالة ولا شك في ذلك.

وبعد هذه البداية القوية يخاطب ربنا الكافر قائلًا:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾

قسم وجوابه.

القسم بالسماء ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي: الطرق، التي هي مسارات الكواكب والنجوم، وهي آية عظيمة من آيات الله، وجواب القسم: إنكم أيها الكفار ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ لأنكم علىٰ باطل، فمنكم مَن يقول علىٰ محمد إنه شاعر، ومنكم مَن يقول إنه ساحر، ومنكم مَن يقول: إنه أحد العظماء فقط، وليس نبيًّا.

علىٰ كل حال: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ يصرف عنه ولا يؤمن به، ولا يتبعه ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ من صرف عن الهداية.

هؤلاء يقولون علىٰ محمد خرصًا، أي: بدون علم، والله يقول عنهم مهددًا:

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قُتِلَ﴾ أي: لعن وهلك هؤلاء ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ الكذابون ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ في ﴿غَمْرَةٍ﴾ من الجهل ﴿سَاهُونَ﴾ عن الحق، وعن الآخرة.

لا هَمَّ لهم إلَّا أنهم ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ مستهزئين قائلين ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: الجزاء هذا؟ والجواب:

يوم الدين يكون: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يعذبون، ويقال لهم ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ عذابكم ﴿هَٰذَا﴾ هو ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مستهزئين.

وبعد بيان حال المكذبين، يأتي بيان حال المصدقين المتقين، فيقول رب العالمين:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

نعم، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لربهم ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ تجري بالماء فيها ومن تحتها، ﴿ءَاخِذِينَ﴾ باستمرار لا ينقطع، بكل رضا وقبول متملكين ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من فضل ونعيم، ما سبب كل ذلك؟ الجواب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ اليوم، أي: وهم في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾.

ولكن كيف كانوا محسنين؟

أولًا: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ينامون، لقيامهم الليل، وعبادتهم لله، ومناجاته طلبًا لرضاه.

ثانيًا: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ أي: وقت السحر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الله على ما مضى من ذنوبهم.

ثالثًا: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ التي رزقهم الله، بها ﴿حَقٌّ﴾ يعطونه ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

ثم يقدم ربنا تبارك وتعالىٰ لهؤلاء الخرَّاصين المكذبين، دلائل علىٰ وحدانيته وقدرته، فيقول جل شأنه:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: ﴿و﴾ قد جعل الله تعالىٰ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ تدل علىٰ وحدانيته وقدرته ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ من عباده.

﴿و﴾ كذلك جعل لكم ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ آيات تدل علىٰ وحدانيته وقدرته، ﴿أ﴾ غفلتم ﴿فَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه الآيات، فتعتبرون بها، فتؤمنون!!

﴿و﴾ أيضًا جعل سبحانه ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ فلا يملكه أحد سواه، ولا يجود عليكم به سواه، ﴿و﴾ جعل فيها مكتوبًا ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ به من الثواب والعقاب.

ثم يقسم ربنا عز وجل علىٰ صدق ذلك وأحقيته، فيقول الحق سبحانه:

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: فعزتي وجلالي ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الذي توعدون ﴿لَحَقٌّ﴾ واقع بكم، واصل إليكم لا محالة، وذلك مؤكد ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ وتتكلمون.

وبعد ذلك يخاطب ربنا حبيبه ﷺ ليؤنسه بقربه ورضاه، ويخفف عنه آلام تكذيبهم له، ويبشره بالفرج، كما حدث مع إخوانه الأنبياء الذين يقص عليه أطرافًا من قصصهم.

فيقول تبارك وتعالىٰ في **القصة الأولىٰ**، وهي: **قصة إبراهيم** عليه السلام:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾

هل عرفت قصة ضيف إبراهيم عليه السلام المكرمين، وماذا حدث معهم.؟

وكأنه عليه السلام يقول:ماذا حدث لهم يا رب؟

فيكون الجواب:

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

اسمع واذكر وقت أن ﴿دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي: ضيوفه، وكانوا عددًا، ﴿فَقَالُوا۟﴾ له ﴿سَلَٰمًا ۖ﴾ أي: حيوه بقولهم: السلام عليكم، ﴿قَالَ﴾ لهم مجيبًا ﴿سَلَٰمٌ﴾ لكم، تفضلوا، في الوقت الذي هم له ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لا يعرفهم، ولا يعرف لماذا قد جآؤوا.

ومع ذلك كان في غاية الكرم ﴿فَرَاغَ﴾ ذهب فورًا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في خِفْيةٍ منهم، وطلب إعداد طعام لهم جيد، وأعد الطعام ﴿فَجَآءَ﴾ لهم ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ مشوي، ووضعه أمامهم، فلم يأكلوا.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ وعزم عليهم أن يأكلوا فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ فلم يجيبوا ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أضمر في نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وله الحق في ذلك، وعرفوا في وجهه خوفه، وما يدور بداخله، لذلك: ﴿قَالُوا۟﴾ له ﴿لَا تَخَفْ﴾ منا نحن ملائكة، نحن رسل ربك إليك ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ يولد له، موصوف بأنه عَليمٌ.

وهذا الحوار سمعته زوجته سارة، يقول المولىٰ عز وجل:

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

يعني ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة إلىٰ الضيوف ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي: صيحة من غرابة ما سمعت ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ كما تفعل النساء حياءً، ﴿وَقَالَتْ﴾ أألِد وأنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ لا ألد؟

فأجابها الملائكة:

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ لها الأمر كَذَٰلِكَ كما سمعت، لقد ﴿قَالَ رَبُّكِ ۖ﴾ إنك ستلدين هذا الغلام العليم، وليس هذا من كلامنا، بل نحن نبشر فقط، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقه.

فإن إبراهيم عليه السلام لمَّا أنس للملائكة، وسعد ببشارتهم: أدرك أن الأمر أكبر من ذلك، وأن مجيئهم لمهمة عظمىٰ، لذا:

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ لهم: خبروني ما السبب الحقيقي لمجيئكم؟

وأجابوه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟﴾ له ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ من ربك ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وهم قوم لوط، الذين عمَّت فيهم الفاحشة، ولم يستجيبوا للوط عليه السلام حين أمرهم بتركها، وظلُّوا علىٰ كفرهم وفاحشتهم.

جئنا ﴿لِنُرْسِلَ﴾ أي: ننزل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عذابًا لهم وإهلاكًا، ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ مطبوخ بالنار.

هذه الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلَّمة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ كل حجر عليه اسم صاحبه، ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ الكافرين الذين استمرؤوا هذه الفاحشة، وعاندوا نبيهم.

وهذه هي: **القصة الثانية** التي يؤنس المولىٰ بها محمدًا ﷺ، وهذا هو الحوار الذي دار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين الملائكة، ثم يخبرنا المولىٰ عمَّا حدث لهؤلاء المجرمين بإيجاز شديد، فيقول الله عز وجل:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾

وذلك حينما قال المولىٰ للوط عليه السلام ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [الحجر: ٦٥] حتىٰ يهلك الله هؤلاء المجرمين، وخرج لوط بأهله ﴿... إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]، أي: الهالكين.

ولمَّا خرج لوط بأهله، يخبر تعالىٰ عن قلة أتباعه الصالحين بقوله عز وجل:

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ومع ذلك: نجَّاهم الله عز وجل من الهلاك ودمر الله الباقين، حيث يقول المولىٰ سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، ثم يقول الله تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

يعني ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ في هذه القرية ﴿ءَايَةً﴾ علامة علىٰ هذا الذي حدث ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ يستفيدون بها، في بعدهم عن الفواحش، ومعصية الله سبحانه وتعالىٰ.

وفي القصة الثالثة، يقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

أي: ﴿وَفِى﴾ قصة ﴿مُوسَىٰٓ﴾ آية وعبرة، وذلك ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ليدعوه إلىٰ الإيمان والهداية ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة واضحة، ودليل ظاهر علىٰ نبوته.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون وأعرض عنه، ولم يستجب له، معتزًا ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ الذي يحتمي به، ويعتمد عليه في طغيانه من: جند، وعتاد،... إلخ، ﴿وَقَالَ﴾ أيضًا لقومه ليصرفهم عن الهداية: هذا ﴿سَٰحِرٌ﴾ جاء يفتنكم ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ فلا تستمعوا إليه.

وهكذا عاند، وطغى، وتجبر !!

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ بقدرتنا ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ ألقيناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهو البحر وأهلكناهم، وانتهىٰ أمر فرعون ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ معاند، كافر، ملوم.

وفي القصة الرابعة، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

أي: ﴿وَفِى﴾ قصة ﴿عَادٍ﴾ قوم هود آية وعبرة، وذلك ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ المفسدة، التي لا خير فيها، بعد أن كذبوا هودًا عليه السلام، وعاندوه، وطغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد.

وهذه الريح: كانت ﴿مَا تَذَرُ﴾ ما تترك ﴿مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ ومرَّت به ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ﴾ سواء كان حيوانًا أو نباتًا هالكًا، باليًا ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ البالي الذي لا نفع به.

وفي القصة الخامسة، يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: ﴿وَفِى﴾ قصة ﴿ثَمُودَ﴾ قوم صالح آية وعبرة، وذلك ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ علىٰ لسان نبيهم آمنوا بالله، وتمتعوا بما أحل لكم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى بلوغ آجالكم ونهاية أعماركم، وأنتم محافظون علىٰ طاعته.

ولكنهم: استكبروا وعاندوا ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وخالفوه وعاندوا نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فأهلكتهم ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾، ومع ذلك ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ ليهربوا من هذا الهلاك، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ لو استطاعوا القيام، حيث إن الذي ينجي من العذاب.. هو الإيمان والعمل الصالح فقط.

وفي القصة السادسة.. يقول جل شأنه:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يعني : ﴿و﴾ أهلكنا يا محمد ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ عليه السلام ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ هؤلاء.

وذلك: لمَّا عاندوا نبيهم، كما يعاندك قومك، حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعتنا.

لئن كانَ المولىٰ سبحانه قد لفت أنظارنا، ووجه اهتمامنا إلىٰ آياته الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته، والمبثوثة في الأرض، وفي الأنفس، وفي السماء !!

ولئن كان عز وجل قد اسمعنا وهو يناجي حبيبه بآياته الدالة كذلك علىٰ واحدانيته وقدرته في قصص هذه الزمرة النفيسة من الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم !!

فإنه تبارك وتعالىٰ: يعرض علينا ـ ثالثًا ـ مجموعة من الآيات الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته، ليزداد إيماننا، وليستقيم صفنا، وليجتمع شملنا علىٰ هذا الدين العظيم.

يقول الحقُّ سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يعني : ﴿و﴾ جعلنا ﴿السَّمَاءَ﴾ في ذاتها آية ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقوة وقدرة لا يعلمها أحد، بل يرى كل أحد آثارها فقط ﴿وَإِنَّا﴾ فوق ذلك ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ لها، حيث نجعلها في امتداد دائم، واتساع مستمر.

﴿و﴾ كذلك جعلنا ﴿الْأَرْضَ﴾ في ذاتها آية، حيث ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ للمخلوقات بالنعم، وبسطناها لهم ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ الممهدون المسوون المصلحون لها؛ لينتفع بها أهلها.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ كالذكر والأنثىٰ، والنور والظلام، والصيف والشتاء... إلخ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بذلك، فتعرفون وحدانية الله وقدرته.

هذا وبعد أن تلا النبي ﷺ هذه الآيات والدلائل الداعية إلىٰ الإيمان، يقول له ربه عز وجل قل لهم:

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

أي: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ أيها الناس سريعًا من الشرك، ومن المعاصي ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إيمانًا به وطاعة له، واعتمادًا عليه ولجوءًا إليه، حيث ﴿إِنِّي لَكُم﴾ مرسل ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح في دعوتي لكم، وتخويفي إياكم من غضبه وعذابه.

نعم، ففروا إلىٰ الله، ووحِّدوه ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ من صنعكم، أو من صنع الشيطان لكم، فتضيعوا ﴿إِنِّي لَكُم﴾ مرسل ﴿مِّنْهُ﴾ تعالىٰ ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح في دعوتي لكم، وتخويفي إياكم من غضبه وعذابه.

ثم يقول تبارك وتعالىٰ للنبي ﷺ، مخففًا عنه آلام تكذيب قومه له:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾

يعني ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التكذيب الذي يفعله قومك معك ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من الأمم السابقة ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ يدعوهم إلىٰ الإيمان، كما تفعل أنت مع قومك ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ له، وعنه: إنه ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

ولمَّا أجمعت هذه الأمم علىٰ هذا القول لرسلها!! كأنَّ سائلًا يسأل متعجبًا، فيأتيه الجواب:

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يعني أكان بينهم اتفاق ووصية أن يقولوا جميعًا: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]؟

الجواب لا، حيث إنهم لم يتلاقوا، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ جمع بينهم الطغيان والكفر، والجحود.

لهذا يقول ربنا لمحمد ﷺ:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾

أي: فأعرض عن هؤلاء الذين دعوتهم مرارًا ولا ملامة عليك، فقد أدَّيتَ الأمانة، وبلَّغت الرسالة.

فقط: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿و﴾ لكن ﴿ذَكِّرْ﴾ بالقرآن واتلوه علىٰ مسامع الدنيا كلها ﴿فَإِن﴾ هذه ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ إن لم يهتد بها الكافرون، فإنها ﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الباحثين عن الهداية، ومرضاة الله. ومن هذا التذكير قولي:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

نعم يقول ربنا سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ لأية مهمة وغاية ﴿إِلَّا﴾ ليعرفوني، و ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾.

ولذلك ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم﴾ إذ خلقتهم ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ لي، ولا لأنفسهم، ولا لغيرهم من عبادي، ﴿و﴾ كذلك ﴿مَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ فأنا منزَّه عن ذلك.

حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ لخلقه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ القدرة المطلقة ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ الشديد في الدنيا والآخرة.. **ولهذا:**

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بكفرهم، وعدم اتباع رسلهم ﴿ذَنُوبًا﴾ نصيبًا من عذاب الله ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ الذين كفروا من قبلهم، وهذا وعيد وتهديد لا شك فيه ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ هذا العذاب فهو واقع بهم لا محالة.

﴿فَوَيْلٌ﴾ وهلاك ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ﴾ هذا ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ العذاب فيه.

اللهم نجنا والمسلمين جميعاً من عذابك يوم تبعث عبادك برحمة منك يا أرحم الراحمين، اللهم آمين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الطور

سورة مكية، وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾

هذا قسم من الله تعالىٰ بخمسة أشياء:

الأول: ﴿وَالطُّورِ﴾ وهو الجبل الذي كلَّم الله به موسىٰ عليه السلام.

الثاني: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ وهي الكتب المنزلة التي سطرت، وتقرأ ﴿فِي رَقٍّ﴾ صحيفة، ﴿مَنْشُورٍ﴾ مفتوح.

الثالث: ﴿وَالْبَيْتِ﴾ في السماء بإزاء الكعبة ﴿الْمَعْمُورِ﴾ بالملائكة الذين يطوفون حوله.

الرابع: ﴿وَالسَّقْفِ﴾ وهي السماء، حيث إنها كالسقف للأرض، ﴿الْمَرْفُوعِ﴾ بقدرة الله بغير عمد.

الخامس: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء، قيل: بالماء، وهو البحر المحيط، وقيل بالنار.

وجواب هذا القسم:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾

متىٰ يكون ذلك؟ إنه يكون:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾

أي: في يوم القيامة، وذلك ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ وتضطرب اضطرابًا عظيمًا ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾ من أماكنها ﴿سَيْرًا﴾ سريعًا.

يومها يكون الناس فريقين: فريق المكذبين الضالين، وهؤلاء يقول عنهم الجبار سبحانه:

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

﴿فَوَيْلٌ﴾ وهلاك وعذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الضالين، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا في الدنيا ﴿فِى خَوْضٍ﴾ في الباطل والكفر والتكذيب ﴿يَلْعَبُونَ﴾ كأنهم أطفال، لا يدركون ما ينتظرهم من عذاب.

انظر ﴿يَوْمَ﴾ القيامة، حيث ﴿يُدَعُّونَ﴾ يُساقون ويُدفعون بقوة ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾، ثم يقال لهم: ﴿هَٰذِهِ﴾ هي ﴿ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم﴾ بها في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، ويقال لهم كذلك توبيخًا وتقريعاً: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الذي ترون، كما كنتم تقولون في الدنيا ﴿أَمْ أَنتُمْ﴾ عُمْيٌ ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾ كما كنتم عُمْي في الدنيا عن الحق لا تبصرون؟

علىٰ أية حال: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ ادخلوها وانغمسوا في عذابها ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟﴾ علىٰ هذا العذاب ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الصبر وعدمه، فأنتم في العذاب لا تخرجون منه، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ﴾ هذا العذاب جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

وأما فريق المتقين المهتدين، فيقول عنهم الرحمٰن الرحيم:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

نعم ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جعلنا الله وإياكم منهم ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ يعيشون في ظلال هذه الإنعامات التالية ـ إنهم ﴿فَٰكِهِينَ﴾ يتمتعون ويتنعمون ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من أفضاله عليهم، ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ ونجَّاهم ﴿رَبُّهُمْ﴾ كذلك ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فلا يصابون به، ولا يعذبون.

ويقال لهم وهم في جنات النعيم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ مريئًا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من طاعة الله.

ويكونون في حالة استرخاء وراحة ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ﴾ بجوار بعضها؛ إسعادًا لأهلها، ﴿و﴾ كذلك ﴿زَوَّجْنَٰهُم﴾ في الجنة ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ ثم يبيِّن المولىٰ لونًا من ألوان الإنعام عليهم فيه إسعاد قلوبهم، وهو إلحاق أولادهم الصالحين بهم، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم المتقون ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وأدخلناهم معهم في جنات ونعيم، وإن لم يعملوا بعملهم تمامًا، ﴿و﴾ في الوقت ذاته ﴿مَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ أنقصناهم أي: الآباء ﴿مِن﴾ ثواب ﴿عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، حيث إن ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فلا يعاقب أحد بذنب أحد.

ثم يكمل ربنا بيان إنعامه عليهم فيقول: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ زوَّدناهم تباعًا حيث يريدون، ﴿بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ دون أن يطلبوا.

وهم ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ أي: يتعاطون مع بعضهم البعض، وهم في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ من الشراب اللذيذ ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ بكلام فارغ ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ بفعل فاحش.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم في الجنة ﴿غِلْمَانٌ﴾ يخلقهم الله في الجنة، كما يخلق

الحور العين إسعادًا ﴿لَهُمْ﴾ يخدمونهم، هؤلاء الغلمان: يريحون البال، ويسعدون الخاطر، ويريحون النظر ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في أصدافه.

ثم يبيِّن المولىٰ لونًا آخر من ألوان نعيمهم وسرورهم، فيقول جل وعلا:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

يعني ﴿و﴾ بينما هم في هذا النعيم ﴿أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يتحدثون و﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ عن سر هذا الفضل الذي هم فيه.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: بعضهم لبعض لقد وصلنا إلىٰ ما نحن فيه، حيث ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ ونحن في الدنيا مقيمون ﴿فِيٓ أَهْلِنَا﴾ غير مشغولين عن طاعة الله، بل كنا من غضبه وعذابه ﴿مُشْفِقِينَ﴾، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بكرمه ﴿و﴾ لذلك ﴿وَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ في جهنم.

سبحانه كريم عظيم ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ ونحن في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ ونتضرَّع إليه أن يرحمنا، وأن يغفر لنا، فاستجاب لنا وأسكننا هذا النعيم، ﴿إِنَّهُۥ﴾ تبارك وتعالىٰ ﴿هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وبعد أن أقسم الله عز وجل على: وقوع البعث، وقيام الحساب !!

وبيَّن أن بين انقسام الناس في يوم الحساب إلىٰ مكذبين ومتقين !!

وبعد أن بيّن ما للمكذبين من عذاب، وما للمتقين من ثواب !!

يأمر النبي ﷺ بدوام التذكير، والصبر، والتسبيح، وهو يناقش الكفار أوهامهم، إذ يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾

يعني ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد قومك والدنيا كلها بما أنزل عليك، وكُلِّفت بتبليغه، ﴿فَمَآ

﴿أَنتَ﴾ إلَّا نبي، و﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ حفي، ولست ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يقولون.

فلا تهتم بأقوالهم وافتراءاتهم عليك، وعلىٰ ما جئت به.

ثم يبدأ المولىٰ عز وجل في عرض أقوال الكافرين، وافتراءاتهم التي تصرفهم عن الإيمان، وذلك: بصيغة الإنكار لها، والتفنيد لمحتواها، ويرد لفظ: ﴿أَمْ﴾ [الطور: ٣٠] الذي يفيد الإضراب والإبطال لكلامهم **خمس عشرة مرة.**

حيث يقول تبارك وتعالىٰ **في المرة الأولىٰ:**

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾

يعني: هم يقولون إنك شاعر، وما جئت به ليس وحيًا، بل هو شعر من صنعك، كما أنهم يقولون: نحن ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ وننتظر ﴿بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ حوادث الأيام حتىٰ ينتهي ويموت، ونستريح منه؟ ويرد عليهم رب العزة بقوله:

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾ بنا ما شئتم ﴿فَإِنِّى﴾ كذلك معكم ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ بكم حتى يأتي عذابكم، وهلاككم.

وفي الثانية والثالثة، يعرض ربنا تبارك وتعالىٰ واحدًا من أوهامهم، ويرد عليهم، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يعني هل ﴿تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ الموقف ﴿أَمْ﴾ أن سبب ضلالهم وعنادهم أنهم ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ دفعهم طغيانهم إلىٰ ذلك؟

علىٰ كُلٍّ: كلا الأمرين ذميم!!

وفي الرابعة، يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يعني هل ﴿يَقُولُونَ﴾ أن محمدًا ﷺ ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: اختلق القرآن من عند نفسه؟ لا، أبدًا، إنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولذلك قالوا هذا الكلام.

وإلَّا ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ هم ﴿بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ كما أتىٰ هو به في زعمهم ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ !!

وبعد أن رد الله عليهم، وأبطل مزاعمهم فيما يخص محمدًا ﷺ: يُفنِّد سبحانه أوهامهم في الإلٰه الواحد سبحانه وتعالىٰ وقدرته، حيث يقول **في الخامسة والسادسة والسابعة** :

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يعني هل ﴿خُلِقُوا۟﴾ هكذا ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ يخلقهم؟ ﴿أَمْ﴾ أنهم ﴿هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم؟

﴿أَمْ﴾ أنهم كذلك ﴿خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ﴾؟ فليجيبوا إن كانوا يقدرون علىٰ ادعاء ذلك، ﴿بَل﴾ الحقيقة: أنهم ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ بالله تعالىٰ وقدرته، وإلَّا لآمنوا بنبيِّه. ولكن! ما الذي دفعهم إلىٰ هذا الموقف؟

حيث يقول أيضاً **في الثامنة والتاسعة والعاشرة:**

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

هل ﴿عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ فيكون الغنىٰ قد أطغاهم، ودفعهم إلىٰ هذا الكفران؟ ﴿أَمْ﴾ أنهم ﴿هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ علىٰ هذا الكون ومقاليده، فتكون القدرة والسلطان قد أطغتهم ودفعتهم إلىٰ هذا الجحود؟

﴿أَمْ﴾ أنهم ﴿لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ إلىٰ السماء يصعدون عليه، ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ إلىٰ كلام الملائكة، أو تلقِّي الوحي، فيدَّعون أنهم أعلم منك يا محمد، وأنهم في غير حاجة إلىٰ ما تبلِّغهم به؟

إنه لا هذا، ولا هذا، وإلَّا ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ الذي يصعد إلىٰ السماء ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ ودليل علىٰ كلامه ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح.

ويكون الاستفهام التوبيخي **الحادي عشر** المبطل لكلامهم، حيث يقول تعالىٰ:

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿أَمْ﴾ أنكم تدَّعون كذبًا وزورًا أنَّ الله عز وجل ﴿لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ أولادًا ﴿وَلَكُمُ﴾ أنتم ﴿ٱلْبَنُونَ﴾ كما تحبون؟

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾

هذا هو الاستفهام **الثاني عشر** بـ ﴿أَمْ﴾ الإنكارية، ومعناه: ﴿أَمْ﴾ أنك يا محمد ﴿تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ علىٰ ما تبلِّغهم به من دعوتنا لهدايتهم، ﴿فَهُم﴾ لذلك خوفًا ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ يدفعونه لك ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ وكارهون؟

والاستفهام **الثالث عشر**:

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾

هل ﴿عِندَهُمُ﴾ علم الغَيْبِ، وما هو مدون في اللوح المحفوظ؟ لذلك: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أقدار الناس، وتسيير شؤون الكون. حتىٰ يصح لهم إنكار البعث والحساب والجزاء؟

والاستفهام **الرابع عشر**:

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿أَمْ﴾ أن الأمر لا هذا، ولا ذاك، وهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ عنادًا لك، و ﴿كَيْدًا﴾ بك، وإهلاكًا، علىٰ كل حال ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ الهالكون.

وختامًا: الاستفهام **الخامس عشر**:

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هل ﴿لَهُمْ إِلَٰهٌ﴾ يؤمنون به، ويعبدونه ﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد، القادر، العظيم؟

ولهذا يعاندون، ولا يؤمنون بمحمد ﷺ ؟ يستحيل أن يكون هناك إلٰه غير الله، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مع الله بأهوائهم.

هؤلاء معاندون، جاحدون !! لا يؤمنون بآية، ولا يقنعون بدليل:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

نعم، إنه لا أمل فيهم.

﴿وَإِن يَرَوْا﴾ بأعينهم ﴿كِسْفًا﴾ أي: جزءًا من السماء ﴿سَاقِطًا﴾ عليهم، عذابًا لهم، لا يصدِّقون أنه عذاب، ولا يؤمنون، بل يقولون: إنه ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ملئ بالمطر والماء، وسنرتوي به.

إنه قمة العناد، وغاية الكفر والتكذيب.

لذلك يقول ربنا تبارك وتعالىٰ لمحمد ﷺ:

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أي: اتركهم يا محمد، ولا تأبه لهم، ولا تحزن من أجلهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ﴾ ولا ينفع ﴿كَيْدُهُمْ﴾ وعنادهم السابق ﴿شَيْـًٔا﴾ يستفيدون به، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فينجون من عذاب الله عز وجل.

كأن سائلًا يسأل: هل يظلون بلا عذاب هكذا إلىٰ يوم القيامة؟

فيكون الجواب:

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

نعم، ﴿و﴾ أيضًا ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بكفرهم وعنادهم، ﴿عَذَابًا دُونَ﴾ أي: قبل ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي يكون في يوم القيامة، حيث يبتليهم الله في الدنيا بالمصائب، لعلهم يرجعون ويؤمنون، ولكنهم لا يفهمون !!

وفي الأثر: يا إلٰهي كم أعصيك ولا تعاقبني !!

فيقول تعالىٰ: يا عبدي كم أعاقبك وأنت لا تدري.

نعم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ويكون التوجيه الكريم للحبيب ﷺ:

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم، وبإيذائهم لك، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ياالله !! إنه: إعزاز ما بعده إعزاز !! وهو: تشريف ما بعده تشريف !! إنه: تكريم لَمْ يحدث لأحد من البشر سوىٰ محمد ﷺ.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ نرعاك، ونؤنسك، ونرفع قدرك، ﴿و﴾ لذلك: لا عليك ﴿سَبِّحْ﴾ فقط ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ❊ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أيضًا ﴿و﴾ كذلك ﴿إِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: عند جنوحها للغيبوبة.

صلّىٰ الله عليك يا سيدي يا رسول الله، وعلى آلكَ وأصحابكَ أجمعين.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النجم

سورة مكية، تبدأ بقوله تعالى:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾

قسم عظيم خطير من الله تعالىٰ بأمر كوني هائل.

ومعناه: ﴿و﴾ أقسم بـ: ﴿النَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ سقط من مكانه وعلوِّه بقدرتنا، وتناثر في النجو أشلاءً، وذلك يكون في الدنيا، ويكون في يوم القيامة.

ولكن علَامَ هذا القسم؟ إنه ولابد علىٰ أمر عظيم.

الجواب: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿مَا ضَلَّ﴾ عن الحق ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ محمد ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ في اتباع الباطل.

﴿و﴾ ليس هذا فقط، بل إنه ﴿مَا يَنطِقُ﴾ فيما يأتيكم به، ويبلِّغه لكم ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: لا يتكلم ﷺ عن هوىً نفسي ورأي شخصي.

وكأنَّ سائلًا يسأل من أين يأتي لنا بما يقول؟ فيكون الجواب:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

ما ﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ من الله ﴿يُوحَىٰ﴾ إليه.

مَن بلَّغه هذا الوحي، وعلَّمه إياه؟

obeikandl.com

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾

﴿عَلَّمَهُ﴾ له بإذن ربه ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ وهو جبريل عليه السلام الذي وصفه ربه بأنه: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: قوة، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ لمحمد ﷺ وظهر له في صورته الحقيقية حينما أحب النبي ﷺ أن يراه عينًا بيانًا.

كيف كان ذلك!

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾

﴿وَهُوَ﴾ أي جبريل عليه السلام، الذي كان ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ من السماء.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: اقترب من رسول الله ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ ونزل من السماء، ﴿فَكَانَ﴾ قريبًا منه ﴿قَابَ﴾ مقدار ﴿قَوْسَيْنِ﴾ ومحمد ﷺ على الأرض ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أقرب من ذلك.

﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ وهو على هذا الحال بأمر ربه إلى محمد ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ وهو الذي يبلغنا ﷺ به.

وكان هذا حقيقة واقعية:

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام، وأخذ عنه وفهم منه، وهو في كامل وعيه، ورعاية ربه، ولذلك ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي: القلب في ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ وسمع وبلغ.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾

وبعد ذلك: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ وتجادلونه وتكذِّبونه ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ من إنعام ربه، ويبلغكم به؟

وليس هذا فقط:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾

﴿و﴾ إذا كانت المرة التي رأىٰ فيها النبي ﷺ جبريل عليه السلام في الأرض، فـ ﴿لَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً﴾ أي مرة ﴿أُخْرَىٰ﴾ في السماء.

وذلك ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ التي ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ۞ إِذْ يَغْشَى﴾ هذه ﴿ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ من خلائق الرحمٰن.

وفي هذه الأحوال القدسية، والتجليات الربانية: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ من محمد ﷺ بسبب ما رآه، ولا فيما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وتجاوز حدوده حينئذ، بل كان عبدًا طائعًا لمولاه سبحانه وتعالىٰ. وغير هذا أيضًا:

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ في هذه المناسبة العظيمة التكرمة الجليلة، وهي ليلة المعراج ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ الدالة علىٰ عظمته سبحانه وتعالىٰ الشيء الكثير.

وبعد أن قدَّر الله تعالىٰ أمر رسالة محمد ﷺ، ذكر ما ينبغي أن يبدأ به الرسول في دعوته، وهو: أمر التوحيد.

حيث يقول مناقشًا لهم مزاعمهم الفاسدة في ذلك:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾

يعني بعد أن عرفتم عظمة الله وقدرته، ونفاذ أمره في الملأ الأعلىٰ، وما تحت الثرىٰ، وما بينها: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ حقارة ما تعبدون من الأصنام، مثل ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ معهما؟

أيضًا: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾

كانوا ـ في الجاهلية ـ يقولون: الملائكة بنات الله، ويعبدونها، وفي الوقت ذاته: يكرهون البنات، ويئدونهن قتلًا في التراب، فيعيب الله عليهم هذا الفهم السيء، وهذا السلوك الفاحش، فيقول: ﴿أَلَكُمُ﴾ تجعلون ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ من دون الله ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ التي تكرهونها؟

﴿تِلْكَ﴾ القسمة إذاً ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ غير عادلة؛ لأنها مبنية على عقيدة فاسدة، وأوهام كاذبة.

والحقيقة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

نعم، ما هذه الأصنام التي تعبدونها ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ وآلهة اخترعتموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ ولا بصحة ألوهيتها ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: دليل، يا محمد.. إنهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الفارغ الذي يظنون!! ﴿و﴾ كذلك: ما يتبعون إلَّا ﴿مَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ لديهم من هذه الأباطيل، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ على لسانك فرفضوه، وهذا تصرف خاطئ منهم.

وإلَّا فهل ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ أن يفعل ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ ولو كان ضارًّا؟

على أية حال: ﴿فَلِلَّهِ﴾ كل شيء، ومرد الأمور كلها إليه، حيث له سبحانه ﴿ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ في الدنيا والآخرة.

يقولون كذبًا: نحن ما نعبدهم إلَّا ليشفعوا لنا، ويقرِّبونا إلى الله زلفى، فيكون الرد عليهم:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

يا هؤلاء!! إذا كان الملائكة المقرَّبون لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ سبحانه وتعالى!!

فكيف تشفع لكم هذه الأصنام أيها الجاهلون؟

حقًّا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾

﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ على الوجه الذي بيَّنه الإسلام أَخْطؤوا خطأً آخر شنيعًا، حيث إنهم ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ لمَّا قالوا: إنهم بنات الله.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: بهذا القول في حق الملائكة ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يستندون إليه، بل إنهم قالوه، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والتخمين، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ ولذلك: فهم على باطل، وفهمهم باطل، وقولهم باطل.

لهذا، يقول رب العزة لمحمد ﷺ، ولكل داع إلى الله تعالى:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

يعني: ﴿فَـ﴾ إذا أعيتك الحيل، وبلغ عنادهم مبلغه ﴿أَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ وابتعَد ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ وهو الحق الذي جاء في القرآن ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ لنفسه ﴿إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وزينتها فقط.

حيث إن ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وقدرهم في الجهل، ولذلك: فضَّلوا الحياة الدنيا على الآخرة ولا تحزن عليهم، ولا تغتم من أجلهم، فليس أمر هدايتهم بيدك ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ سبحانه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ من العباد ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وسيجازي كل أحد من الضالين، ومن المهتدين بما يستحق.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾

سبحانه المالك لكل ذلك: لا رادَّ لحكمه، ولا معقِّب لأمره، **يُضِلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء:**

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ عدلًا منه ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من سوء، ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ فضلًا منه ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنة.

من هم أهل الحسنىٰ ـ وهي الجنة ـ؟

إنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

أهل الجنة ـ جعلنا الله وإياكم منهم ـ هم ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ويبعدون عنها بصفة عامة، ﴿و﴾ كذلك: يبتعدون عن الفَوَاحِشِ منها بصفة خاصة.

وفي الحديث الشريف يقول المصطفى ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات» قيلَ: يا رسول الله! وما هُنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»** رواه مسلم.

وقال بعض العلماء: إن المنصوص عليها في الأحاديث أنها كبائر، خمس وعشرون.

ثم يقول ربنا عز وجل: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ وهي صغائر الذنوب التي يقعون فيها بحكم بشريتهم، ثم يتوبون منها، ولا يُصرُّون عليها، وهذه يغفرها الله لهم، حيث ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ فقد وسعت رحمته كل شيء لمن تاب عنها، ورجع إلىٰ ربه وأناب.

وقد يظن بعض الناس: أنهم بصلاتهم وصيامهم، وباقي عبادتهم علىٰ شيء، وأنهم أطهار، وأنهم، وأنهم... الخ.

وأنهم: أهل التقوىٰ، وهذا لا ينبغي، حيث إن الذي يحدد ذلك هو الله عز وجل، الذي بيده قبول هذه الأعمال وعدم قبولها، ولذلك يقول سبحانه لهؤلاء:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم، **أولًا** ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بإنشاء أبيكم آدم منها، وهو أعلم بكم، **ثانيًا** ﴿إِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ﴾ كيف تكونون، وماذا تكونون، آنذاك، وبعد ذاك؟ لذلك: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ﴾ وتمدحوها، وتمُنُّوا علىٰ الله بطاعاتكم، وتتباهوا أمام الخلق بعبادتكم، إذْ هو سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ منكم ربه، وابتغىٰ رضاه!!

وإذا كان هذا حال المحسنين!! وإذا كان هذا أسلوب تربيتهم، وتطهير نفوسهم!!

فإن الله عز وجل يحدثنا عن المسيئين، فيقول سبحانه:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾

تعجيب من هؤلاء الكفار المعاندين المسيئين: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ هذا الكافر ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن الإيمان، وحارب أهله، وعاند الداعين إليه، ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ في عناد الحق جُهدًا ﴿قَلِيلًا﴾ لا قيمة له ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ نفسه وأتعبها من أجله.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

هل: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي لا يعلمه إلَّا الله، لذلك ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أنه لا عذاب له، حيث لا بعث ولا نشور ولا حساب؟

أهذا هو السبب في كفره، وصدِّه الآخرين عن الإيمان؟

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾

أم أنه جهل، ﴿لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام ﴿و﴾هو الذي بلَّغه ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ به، وعمل بمقتضاه.

ولكن ما هذا الذي كان في صحف موسىٰ، وبلَّغه إبراهيم عليه السلام؟ إنه:

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾

كل هذا: في صحف موسىٰ عليه السلام، ووفىٰ إبراهيم عليه السلام بإبلاغه.

وبيانه كالتالي: لا تزر نفس وتحمل ذنب نفس أخرىٰ.

وأنه: ليس للإنسان إلَّا جزاء سعيه هو، وسوف يرىٰ هذا الجزاء لا محالة إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وذلك: يوم القيامة.

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ الذي لا زيادة فيه، ولا نقصان.

وأنه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يوم القيامة، فيكون هذا الجزاء، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ الذي خلق الأضداد، فمثلًا: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ سبحانه القادر علىٰ كل شيء فهو الذي ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطْفَةٍ﴾ واحدة ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ وتتدفق في الرحم.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾ عز وجل ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وهي البعث، كما أنه كان صاحب النشأة الأولىٰ من النطفة.

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ تبارك وتعالىٰ ﴿أَغْنَىٰ﴾ عباده بالمال وغيره، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ وجعلهم يمتلكون ما يقتنونه ويحتفظون به.

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ وهو النجم الذي كان يعبده فريق من الناس زورًا وبهتانًا.

﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ سبحانه ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ بظلمهم وكفرهم، وعنادهم لنبيهم، ﴿وَثَمُودَا۟﴾ قوم صالح أيضًا أهلكهم ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ منهم أحدًا.

﴿و﴾ كذلك أهلك ﴿قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ هؤلاء، حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾، ﴿و﴾ أيضًا ﴿ٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ وهم قوم لوط ﴿أَهْوَىٰ﴾ بهم، ودمَّر عليهم ديارهم، ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ بالعذاب ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ سبحانه وتعالىٰ فعل كل ذلك.

ولستم أيها الضالون في مأمن من أن يَفعل بكم مثل ذلك!!

ومع كل هذا: فنعمه كثيرة عليكم، لذلك يقول سبحانه:

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَبِأَيِّ﴾ نعمة من ﴿ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: نعمه عليك ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ وتشك فيها، وأنها من فضله وإنعامه؟ وهذا: إثبات للوحدانية.

علىٰ أية حال!!

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾

أي: هذا النبي الذي أرسل إليكم، وهو محمد ﷺ ﴿نَذِيرٌ﴾ لكم ﴿مِن﴾ جنس ﴿ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ السابقة للأمم المتقدمة، وهذا: إثبات لرسالته ﷺ.

أيضًا: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾

أي: اقتربت القيامة ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿كَاشِفَةٌ﴾ عن أحوالها، ومنجية من أهوالها.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ وتنكرون؟!! ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً وسخرية ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خشوعًا كما يفعل المؤمنون المتقون؟!!

كل ذلك ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ غافلون عما يحيط بكم من عذاب الله.

وبعد هذا الترهيب والتخويف بهذا الكلام الصادق البليغ، أمرهم قائلًا:

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾

وقد سجدوا بالفعل علىٰ شركهم؛ تأثُّرًا بروعة هذا البيان، وقوة هذا التعبير، وهو: أمر بالخضوع والسجود والإذعان والطاعة لله رب العالمين.

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر

سورة مكية، وهي تبدأ بقوله عز وجل:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾

يعني: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي: القيامة من الوقوع والمجيء، ﴿و﴾ قد ﴿انشَقَّ الْقَمَرُ﴾ علىٰ عهد رسول الله ﷺ، بعد أن طلب الكفار منه ذلك دلالة علىٰ صدقه فيما يخبرهم به، وبعد أن رأوا هذه الآية بعيونهم كذَّبوا.

يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾

يعني: ﴿وَإِن يَرَوْا﴾ أي: هؤلاء الكفار ﴿آيَةً﴾ أيَّ آية ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن الإذعان لها، والإيمان بالله، واتباع محمد ﷺ، ﴿وَيَقُولُوا﴾ هذا الذي نراه ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وليس معجزة تدل علىٰ صدق محمد.

إنهم عاندوا:

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾

﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبي ﷺ ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ لجهلهم وسفاهتهم ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ الفاسدة، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ من أمرهم أو أمر النبي ﷺ ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ ومنته إلىٰ غاية يتبيَّن عندها المحق من المبطل، وهو تهديد لهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾

﴿و﴾ مع ذلك ﴿لَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ عن هلاك المكذبين ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ لهم، ولكنهم لم ينزجروا، ولم يؤمنوا.

وهذا القرآن أيضًا:

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾

أي: ما فيه ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ تنفعهم لو كانوا يعقلون!! ولكنهم وصلوا إلىٰ حالة لا يفيد معها أي شيء، لذلك: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ معهم، ولا تفيد.

ولهذا يقول رب العزة للحبيب:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

أي: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: عن هؤلاء الذين مهما رأوا من آية ﴿يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، واتركهم وانتظر ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ في يوم القيامة ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ﴾ فظيع ﴿نُّكُرٍ﴾ تكرهه الأنفس لشدة هوله.

يومها: يخرج هؤلاء من قبورهم ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أذلاء، مكسورين، وهم كثر ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في كل الأنحاء والجهات.

ويكونون ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين ﴿إِلَى﴾ تلبية دعوة ﴿ٱلدَّاعِ﴾ الذي دعاهم ونادىٰ عليهم، وعندها ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من شدة ما يجدون وهول ما يعانون ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب شديد، لا نجاة لنا فيه.

نعوذ بالله تعالىٰ من هؤلاء، ومن مصيرهم الذي يلاقون!!

بعد أن قال ربنا تبارك وتعالىٰ لحبيبه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾!!

وبعد أن بيّن ربنا عز وجل بعض أوصافهم في هذا اليوم العسر!!

وبعد أن أخبرنا سبحانه: بأنه ﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]، ولم يزدجروا !! أخذ جل شأنه يعرض بعض هذه الأنباء، فقال تعالىٰ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾

أي: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ عليه السلام، وعاندوه، وسخروا منه، واستمروا علىٰ تكذيبهم له ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحًا ﴿وَقَالُوا۟﴾ عنه: إنه ﴿مَجْنُونٌ﴾ فيما يطالبنا به من عبادة الله وحده، ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: وزجروه، وقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]؟

استمر علىٰ دعوته معهم، ثم توجه إلىٰ ربه:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾

﴿فَـ﴾ لمَّا وجدهم لا يستجيبون ﴿دَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ قائلًا: ﴿أَنِّى﴾ ضعيف ﴿مَغْلُوبٌ﴾ منهم، وأنت القوي العزيز ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ منهم لدينك ودعوتك.

فماذا حدث؟ أجاب الله دعاءه، وهزم أعداءه، يقول الحق سبحانه:

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾

أي: علىٰ الفور ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ يُصَب عليهم صبًّا من فوقهم.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ من تحتهم ﴿عُيُونًا﴾ تفور بالماء، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ الذي ينهمر من السماء مع الذي يفور من الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قدَّره الله، وهو إغراقهم، وبالفعل: غرقوا في هذا الطوفان.

ولكن أين نوح عليه السلام من هذا الطوفان؟ يقول المولىٰ عز وجل:

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي: نوحًا عليه السلام بقدرتنا ﴿عَلَىٰ﴾ سفينة ذات ألواح خشبية ﴿وَدُسُرٍ﴾ مسامير من الحديد.

هذه السفينة: هي التي أمرناه بصنعها قبلًا، فقلنا له: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].

علىٰ أية حال: حملناه علىٰ هذه السفينة التي صارت ﴿تَجْرِى﴾ علىٰ وجه الطوفان

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ورعايتنا، وهلك مكذبوه !! وكان هلاكهم ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

وانتهت قصة نوح عليه السلام مع قومه الذين كذبوه.

أما سفينته، فيقول عنها رب العزة:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: خبرها وقصتها وعبرتها ﴿ءَايَةً﴾ لمن يعتبر، ويتعظ، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ بها، ومستفيد منها؟ وهكذا كانت قصة نوح نبي الله عليه السلام مع قومه المكذبين!! وهكذا كان هلاكهم!!

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾

أي: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ لمن كفر بي، وكذَّب رسلي ونذري؟

إنه أليم، أليم، أليم !! فهل تتعظون يا كفار هذه الأمة؟ خاصة أنه:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

نعم، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ وسهَّلنا ﴿ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ والإفادة منه، والاتعاظ به لجميع الناس، وفي كل عصر!! ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ينتفع به، فيؤمن بعد كفر، ويتوب بعد عصيان؟؟

وهكذا توجيه: بعد تهديد!!

وتيسير: بعد تشديد!!

قصة أخرىٰ من هذه الأنباء التي جاءت هذه الأمة، هي: قصة عاد، قوم هود عليه السلام، يقول الحق سبحانه:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هودًا عليه السلام في دعوته لهم إلىٰ اتباعه في الإيمان بالله الواحد، ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ تخويفي لهم، بـ ﴿عَذَابِى﴾ قبل نزوله، ﴿و﴾ جعلي هذا العذاب ﴿نُذُرِ﴾ وتخويفي لمن بعدهم؟

فكيف كان هذا العذاب الذي نزل بعاد قوم هود؟ الجواب:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إِنَّآ﴾ لمَّا كذبوا نبيهم، وعاندوه، واستمروا علىٰ كفرهم ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بقدرتنا ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ شديدة البرودة، وذلك ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم عليهم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ بهم.

وصارت هذه الريح ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ من بيوتهم وأماكنهم، وصاروا يتطايرون فيها ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أجساد بلا رؤوس، حيث تطايرت رؤوسهم وقلعت من أجسادهم، وهكذا كان هلاكهم!!

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾

أي: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ لمن كفر بي، وكذب رسلي ونذري؟ إنه:

أليم، أليم، أليم!! فهل تتعظون يا كفار هذه الأمة؟ خاصة أنه:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

نعم، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ وسهلنا ﴿ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ والإفادة منه، والاتعاظ به لجميع الناس، وفي كل العصور!! ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ينتفع به، فيؤمن من بعد كفر، ويتوب بعد عصيان؟

وهكذا توجيه: بعد تهديد!! وتيسير: بعد تشديد!!

وإلىٰ قصة ثالثة من هذه الأنباء التي جاءت هذه الأمة، هي: قصة ثمود، قوم صالح عليه السلام، يقول الحق سبحانه:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ صالحًا عليه السلام، في دعوته لهم إلىٰ اتباعه في الإيمان بالله

الواحد، وبهذا: تكون ثمود قد كذبت ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ التي جاءت من عند الله كلها.

ولكن كيف كان تكذيبهم؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ءَأُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾

يعني لمَّا دعاهم صالح إلىٰ الإيمان بالله سارعوا ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ له مستنكرين: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا﴾ من بيننا ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾!! ثم قالوا ﴿إِنَّآ﴾ لو فعلنا ذلك،واتبعناه كنا ﴿إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ وبُعد عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ ومجانين أيضًا.

ثم قالوا ثالثًا: ﴿ءَأُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ﴾ الذي جاء به إلينا، ألقي ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا مَن هو أحق منه بذلك، ثم قالوا أخيرًا: ﴿بَلْ هُوَ﴾ فيما جاء به، وفيما يدعونا إليه ﴿كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ شديد الكذب.

قال تعالىٰ لنبيه صالح عليه السلام : لا تبتئس من موقفهم هذا، ولا تحزن من تكذيبهم!!

فإنهم: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾

عند نزول العذاب بهم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ علم اليقين ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ هم، أو أنت.

يا صالح!! ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ آية دالة علىٰ قدرتنا، وهي ﴿فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً ﴿لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ وانظر ماذا يصنعون بآية الله، ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ في دعوتك لهم، وإقامتك معهم.

﴿و﴾ كذلك ﴿نَبِّئْهُمْ﴾ وأعلمهم ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ﴾ الموجود عندهم ﴿قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ وبين هذه الناقة، حيث يكون ﴿لَهَا شِرْبٌ﴾ في يوم ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ﴾ آخر ﴿مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي يحضر صاحبه لنواله، لا تجور الناقة في يومكم، ولا تجورون عليها في يومها.

علمًا بأنها في يوم شربها: ستعطيكم لبناً قدر ما تشرب من الماء؛ تنتفعون به.

فماذا فعلوا حينما قال لهم صالح هذا الكلام؟ بل: ماذا فعلوا حينما جاءت الناقة، وسار الحال؟ لقد بطروا وطغوا.

يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾

في سورة النمل [٤٨] يقول تعالىٰ: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ أي: واحداً منهم، وهو أشقاهم ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ الخمر وشرب منها حتىٰ سكر ﴿فَعَقَرَ﴾ أي: نحر الناقة وذبحها، والكل ينظرون راضون بما فعل، حيث لم ينكر عليه أحد منهم ما فعل.

حقًّا، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٤] ماذا حدث لهم..؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾

أي: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ لمن كفر بي، وكذب رسلي ونذري؟ إنه:

أليم، أليم، أليم!! فهل تتعظون يا كفار هذه الأمة؟

ولكن كيف كان عذاب الله لثمود قوم صالح عليه السلام؟ يقول عز من قائل:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾

﴿إِنَّا﴾ لمَّا كذبوا نبيهم، وعاندوه،واستمروا علىٰ كفرهم، وعقروا الناقة بغيًا وطغيانًا

﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بقدرتنا ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أهلكتهم جميعًا، ﴿فَكَانُوا﴾ بعدها ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ كمخلَّفات الحيوانات التي جفَّت، ولا قيمة لها.

هذا: عذاب ثمود، قوم صالح عليه السلام جاء نبؤه في القرآن الكريم، فهل تتعظون، وتؤمنون!!؟ خاصة أنه:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ وسهَّلنا ﴿الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ والإفادة منه، والاتعاظ به لجميع الناس، في جميع العصور!! ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ينتفع به، فيؤمن بعد كفر، ويتوب بعد عصيان؟ وهكذا توجيه: بعد تهديد !! وتيسير: بعد تشديد!!

وقصة رابعة من هذه الأنباء التي جاءت هذه الأمة،هي: قصة قوم لوط عليه السلام، يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾

أي: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطًا عليه السلام، في دعوته لهم إلىٰ اتباعه في الإيمان بالله الواحد، وترك ما هم فيه من فاحشة، وبهذا: يكون قوم لوط قد كذَّبوا ﴿بِالنُّذُرِ﴾ التي جاءت من عند الله كلها.

ماذا حدث لهم، وماذا حدث للوط عليه السلام؟

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿إِنَّا﴾ لمَّا كذَّبوا نبيَّهم، وعاندوه، واستمروا علىٰ كفرهم وفاحشتهم ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بقدرتنا ﴿حَاصِبًا﴾ حجارة ترميهم بها، فتهلكهم جميعًا ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ الذين آمنوا به، فقد ﴿نَجَّيْنَاهُم﴾ من هذا العذاب، وأخرجناهم من القرية في الليل ﴿بِسَحَرٍ﴾، وذلك ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ عليهم، ورحمة بهم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي فعلناه مع لوط ﴿نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ نعم الله، وآمن به،واتبع رسله.

قصتهم بشيء من التفصيل، كما يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾

نعم، ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط، وخوَّفهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾ بمن كفر، وعاند، وطغى، ﴿فَتَمَارَوْا﴾ وتشكَّكوا ﴿بِالنُّذُرِ﴾ التي تأتيهم من عند الله.

فماذا فعل الله بهم حينذاك؟

يقول سبحانه: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أعميناهم، وقلنا لهم: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

فماذا فعل بهم بعد هذا العمى؟

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ في أول النهار ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ بهم، لا هروب لهم منه، ولا نكال لهم عنه.

وقلنا لهم: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾

فكان هذا عذاب قوم لوط عليه السلام، جاء نبؤه في القرآن الكريم.

فهل تتعظون، وتؤمنون!!؟ خاصة أنه:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ وسهَّلنا ﴿الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ والإفادة منه، والاتعاظ به لجميع الناس، في جميع العصور!! ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ينتفع به، فيؤمن بعد كفر، ويتوب بعد عصيان؟

القصة خامسة: من هذه الأنباء التي جاءت هذه الأمة، هي: قصة آل فرعون.

يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ مع موسى عليه السلام.

ولكن: ماذا فعل فرعون وآله؟

إنهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التسع التي جاء بها موسىٰ لهم ﴿كُلِّهَا﴾، فماذا حدث لهم لمَّا كذبوا؟

يقول العزيز الغالب: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ﴾ بالعذاب ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ غالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ فأبادهم الله جميعًا، ولم يُبْقِ منهم أحدًا.

هذه هي بعض الأنباء التي جاء بها القرآن، وأخبرنا بها محمد ﷺ، وخوَّفنا بها رب العالمين.

قل لهم: يا محمد فهل تتعظون؟ وهل تؤمنون، أو تظلون علىٰ كفركم؟

فإذا بقيتم علىٰ كفركم وعنادكم: فأخبروني!!

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾

يعني: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ الذين يعاندون ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ﴾ الذين أهلكهم الله وعذبهم؟ بحيث لا يعذبهم!! ﴿أَمْ﴾ أنَّ ﴿لَكُمْ﴾ وعندكم ﴿بَرَآءَةٌ﴾ من العذاب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ في الكتب المتقدمة، وبذلك: أمِنْتم إهلاك الله لكم، وتعذيبه إياكم.

﴿أَمْ﴾ أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ لكم يا مؤمنون ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ معنا القوة والعدة والعتاد ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ لا ينزل بنا سوء، ولا يمسنا عذاب.

إذا قالوا ذلك، قل لهم:

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ الذي تعتدون به، وقد كان يوم بدر، وتحققت بذلك نبوءة النبي ﷺ، ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: وينصرفون منهزمين.

وهي: في الوقت ذاته بشارة لهذه الأمة، كلما تحقَّق إيمانها، وطغىٰ وتجبَّر عليها أعداؤها.

وأكثر من هذا، يقول الله تعالىٰ:

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهي يوم القيامة يكون ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ للعذاب الأليم، الأشد من عذاب الدنيا ﴿و﴾ هذه ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ حقيقةً ﴿أَدْهَىٰ﴾ عليهم ﴿وَأَمَرُّ﴾ عذابًا بهم.

حقًّا: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ وضياع في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: نار موقدة مستعرة يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ حينها ﴿فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فلا يدرون أين يُذهب بهم؟

ويقال لهم توبيخًا وتبكيتًا: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ﴾ عذاب ﴿سَقَرَ﴾ وهي جهنم.

وتدليلًا على حكمة الله وقدرته في ذلك، يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

﴿إِنَّا﴾ بقدرتنا وحكمتنا ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ في ملكنا ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ وحكمة، ولغاية وعلّة.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ لأي شيء؛ ليكون كما نريد ﴿إِلَّا﴾ قولة ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ هي: كن فيكون ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ ولذلك، عليهم إن كانوا عقلاء أن يخافوه سبحانه، وأن يؤمنوا به عز جاهه.

ثم يكون التنبيه الأخير في السورة للكافرين، حيث يقول لهم رب العزة:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر، كما جاء في القرآن،

وأخبر به محمد ﷺ، ولستم أفضل منهم، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فيكم يتعظ، فيؤمن بعد كفر، ويتوب بعد عصيان؟

هذا ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ مُدوَّن ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ لا يغيب منه شيء، وأنتم كذلك!!

أيضًا ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ منكم ومنهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ ومكتوب في اللوح المحفوظ، وستحاسبون عليه.

وإذا كان هذا هو حال الكافرين، فالمؤمنون على خلاف ذلك، يقول عنهم رب العزة:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ يتمتعون عكس الأشقياء الذين يكونون في ضلال وسعر يعذبون.

كما أن هؤلاء المتقين يكونون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ دار كرامة ورضوان، وفضل من الله عليهم، وهذا المقعد الصدق يكون ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند عظيم مقتدر على كل شيء، وعلى ما يطلبون ويريدون في هذا النعيم.

جعلنا الله وإياكم منهم أجمعين، اللهم آمين.

* * *